مزايا لغة العرب

لحضرة الاديب العالم شكري افندي الآلوسي البغدادي

اعلم ان لغـة العَرَب لم تَزل موضوع البحث عمَّا حوتهُ من الاسرار والدقائق التي لم تشتمل عليها لغة اخرى من اللغات حتى أنف في ذلك كُتُب كثيرة قديمًا وحديثًا فاحببتُ ان انبّه على شيء من مزاياها على وجه الاجمال يظهر به انَّهـا حسنةٌ من حسنات القوم فضيلة من فضائلهم. فمن جملة مزايا هذه اللغة الجليلة:

اوَّلًا سعة نطاقها فانَّها اتمُّ الالسنة بيانًا وتمييزًا للمعـاني جمعًا وفرقًا بجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل اذا شاء المتكلّمُ الجمعَ

ثانيًا ثمَّ يُميّز بين كلّ شيئين مُشتبهين بلفظ آخر مميز مختصر. كما نجدهُ في لغتهم في جنس الحيوان فانهم مثلًا يعبرون عن الذكر المشترك من الحيوان بعبارات جامعة ثم يميزون بين انواعه في اسماء كلّ امر من اموره من الاصوات والاولاد والمساكن والاطفار والشعور وغير ذلك من خصائص اللسان العربيّ التي لا يُستراب فيها ممَّا هو مفصَّل في كتب فقه اللغة لابن فارس والثعالبي وغيرهما

ثالثًا مع كثرة موادّها وسعة مجالها كما ما لا يُخفى على من مارسها لاسيَّما في الاشياء التي تمسُّ حاجة القوم اليها. فقد يكون للشيء الواحد عدَّة اسماء باعتبار تعدُّد صفاته واحواله وبكثرة الالفاظ المترادفة لديهم أتسعت لهم دوائر الآداب الشعريَّة. فانَّ للعسل ثمانين اسمًا وللثعبان مئتين وللاسد خمسمائة وللجمل الفًا وكذا السيف وللداهية نحو اربعة آلاف اسم وغير ذلك ممَّا هو مفصّل في محلّه

رابعًا مع ما في اللغة العربية من القواعد الكليـة والقوانين الكافية لوضع الالفاظ لمعانٍ لم تكن في القرون الخالية والازمنة الماضية ممَّا استُحدث من الفنون والصنائع والآلات التي سمَّاها مُحدثوها باسماء من لغاتهم. فانَّ من اطَّلع على ما في اللغة العربيـة الاطلاع الكافي امكنهُ ان يأخذ لها اسماء من هذه اللغة بسهولة. فان اكثر تلك الاسماء هو من قبيل اسم المكان او الآلة. وصوغ اسم المكان والآلة ونحوها في العربية مطَّرد من كل

فعل ثلاثيّ كما ترى كثيرًا من كتب المصريين والسوريين الذين لهم حميّة على لغتهم وأنفة ان يدنّسوها بغيرها يعبرون عن كل ما استحدث بلفظ عربي مبين

خامسًا وفي اللغة العربية وجهٌ آخر لصوغ الفاظ تسدُّ مسدَّ الالفاظ الاعجمية التي مسّت الحاجة اليها وهو باب النحت(١). قال ابن فارس في فقه اللغة: « العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة وهو جنس من الاختصار وذلك كقولهم رجل عَبْشَمي منسوب الى اسمين وهما عبد شمس وانشد الخليل:

أقول لها ودمع العين جارٍ ألَمْ يُخزِنْكِ حَيْعَلَةُ المنادي

من قولهم (عَمَّ على كذا) وهذا مذهبنا في انَّ الاشياء الزائدة على ثلاثة احرف اكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد (ضَبَطْر) من « ضَبَطَ وضَبَرَ » وفي قولهم (دَهْمَطيق) انَّهُ من « دَهَمَ وسَاقَ ». وفي (الصَّلْدِم) انَّهُ من « الصَّلْد والصَّدْم » الى آخر ما قال

سادسًا هذا الى ان اللغة العربية احسنُ اللغات صِيَغًا واساليب واتمُّها واكملها نسقًا وتاليفًا مع تسويغ استعمال النحت عند اقتضاء الضرورة

سابعًا ومن مزايا اللغة العربية تناسبُ اللفظ والمعنى طولًا وقصرًا وخفَّة وثقلًا وكثرةً وقلَّة وحركةً وسكونًا وشدَّةً ولينًا فان كان المعنى مُفردًا افردوا لفظهُ وان كان مركَّبًا ركَّبوا اللفظ وان كان طويلًا طوّلوهُ « كالمَنْطَنْط والمَشَنَّق » للطويل. فانظر الى طول هذا اللفظ لطول معناهُ. وانظر الى لفظ « مُجْتَر » وما فيهِ من الضمّ والاجتماع لما كان مسمّاهُ القصير المجتمع الخلق. وكذلك « الحديد والحجر والشدَّة والقوَّة » ونحوها تجد في الفاظها ما يناسب مسمَّياتها. وفي لفظ « الهواء والماء والنسار واللين والضعف والرِّقَّة » من اللطافة والخفَّة ما يناسب مسمَّياتها. وكذلك لفظ « الدَّوَران والنَّوَران والقَلَيان » وبابُها في لفظها من تتابُع الحركة ما يدلّ على تتابع حركة مسمَّاها. وكذلك « الدخَّال والخرَّاج والضرَّاب والأفَّاك » في تكرُّر الحرف المضاعف منها ما يدلّ على تكرُّر المعنى. وكذلك « القَضْقَاض والظَّمْآن والحَيْزَبون » وبابُهُ ممَّا صيغ على هذا البناء الذي يتسع النُّطق بهِ

---

١) راجع المقالة الثانية في الالفاظ المحوتة

ويمتلئ الفم بلفظه لامتلاء حامليه من هذه المعاني فكأنّ الغَضْبان هو المتلئ غضباً الذي قد اتّسع غضبُهُ حتى ملأ قلبهُ وجوارحهُ. وكذلك بقيّتها

ولا يتّسع المقام لبسط ذلك كلّه لأنّه ينشأ من جوهر الحرف تارةً ومن إصفته ومن اقترانه بما يناسبهُ ومن تكرّره ومن حركته وسكونه ومن تقديمه وتأخيره ومن اثباته وحذفه ومن قلبه واعلاله الى غير ذلك من الموازنة بين الحركات وتعديل الحروف وتوخّي المشاكلة والمخالفة والخفّة والثقل والفصل والوصل. وهذا باب يقوم مَن تتبّعهُ بسفر ضخم. والمناسبة بين اللفظ العربيّ ومعناهُ مذهبُ كثير من أئمّة اللغة وأساطين العربية

وعَقَدَ له ابو الفتح ابن جنّي باباً في الخصائص وذكرهُ عن سيبويه واستدلّ عليه بانواع من تناسب اللفظ والمعنى ثم قال: « ولقد مكثتُ برهة يَرِدُ عليَّ اللفظ لا اعلم موضوعهُ فآخذ معناهُ من قوّة لفظه ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى ثم اكشفهُ فآخذهُ كما فهمتهُ او قريباً منهُ ». وقال ابو يعقوب السكاكي: « انّ الحروف في انفسها خواصّ بها يختلف المعنى كالجهر والهمس والشدّة والرخاء والتوسط بينها وغير ذلك مستدعية في حقّ المحيط بها علماً ان لا يُسَوّي بينها. واذا اخذ في تعيين شيء منها لمعنًى ان لا يهمل التناسب بينهما قضاء لحقّ الحكمة. مثل ما ترى في « القَضْم » بالقاف الذي هو حرف وِخْم لكسر الشيء من غير ان يبين. « والقَصْم » بالقاف الذي هو حرف شديد لكسر الشيء حتى يبين. « والثَّلم » بالميم الذي هو حرفٌ ما بَيْنِيٌّ لتخلل في الجدار. « والثَّلب » بالباء الذي هو شديد لتخلل في العِرْض. « والزفير » بالفاء الذي هو حرف وِخْم لصوت الحمار. « والزئير » بالهمز الذي هو شديد لصوت الأسد وما شاكل ذلك. وان للتركيبات كالفَعَلان والفَعَلى بتحريك العين فيهما مثل « النَّزَوان والحَيَدَى » لما في مسمّاها من الحركة. وفَعُلَ مثل « شَرُفَ » للافعال الطبيعية اللازمة. وغير ذلك خواصّ ايضاً فيلزم فيها ما يلزم في الحروف وفي ذلك نوع تأثير لافض الكلم في اختصاصها بالمعاني » انتهى. وكان لابي العبّاس ابن تيميّة فهم عجيب في هذا الباب كان اذا انبعث فيه أتى بكل غريبة ورأيت لهُ فصولاً مفيدة في ذلك يطول الكلام بنقلها مع اني اقول:

تألّقَ البَرْقُ نجديًّا فقلتُ لهُ يا أيّها البَرْقُ إنّي عنكَ مَشْغُولُ